

العرب والعمارة و عقدة الغرب

إعداد

د. أحمد وليد السيد

مدير مجموعة لوناير للعمارة والفنون بلندن

المنكوب إلى ما جاوره من البلدان الذي يفتح أبوابه على مصراعيه فيترعرع الجار إذ أن مصائب قوم عند قوم فوائد.

أخبرني أحد (الخبراء) الأجانب الذين التقيت بهم، أنه قبل ثلاثين سنة ذهب للعمل في إحدى الدول العربية الشرق أوسطية، فاستقبله المحافظ ورئيس البلدية لدى وصوله وكيف لا وهو الخبير الوافد المكرم ويسرد لي هذا الخبر بحال السخرية من غباء هذين المسؤولين كيف أنهما أرادا أن ينهلانا معين علمه الجم الغزير فبادره الأول بالسؤال نريد شئك طريق للمدينة فأني هذين المكانين أكثر مناسبة من هناك أم هناك؟ وأشار بيده لناحيتين مختلفتين عبر الجبال ويتابع هذا الخبير سرد القصة فيقول لي ولم أعلم ما أقول إذ لا علم لي بتخطيط المدن ولا معلومات لدي لتسند الإجابة لكنني كنت مضطراً للإجابة فاخترت أحد الطرفين كرايي الشخصي فما كان من رئيس البلدية إلا أن نظر للمحافظ نظرة المنتصر وقال له رأيت تماماً كما قلت لك ويتابع هذا الخبير قصته لي فيقول وركبت السيارة مغادراً للعاصمة، وبعد أيام رأيت صورتي بالجملة وخلصي المسؤولين تبدو عليهما علامات الزهو وكأن لسان حال أحدهما يقول للآخر رأيت تماماً كما قلت لك!

ولعمر الحق لقد تاهت العرب وهامت في بيدااء التبعية وبنست وخابت وخسرت تلکم الأموال التي وضعت أمام عصابات الغرب تتناوشها أتى شاعت عصابات من اللصوص الخترفين تدعي الخبرة والمعرفة يحضرون للمشترق كخبراء ومعظمهم من العاطلين عن العمل لولا الكرم والغباء العربيين ولعل هذا الغربي قد بلغت به الأمانة أن يخبرني ببعض ما مر به من غباء إنما الحال أن هناك الكثيرين من عاش وترعرع وما يزال على هذا الغباء وتلك التبعية الغربية المقيتة، التي لا يدفعها شيء إلا انبهار والخداع بنظام حياة غربي حكمه معايير لا تتوافر في الشرق نفس هذا الخبير تابع سرده لفصص يندى لها الجبين فقد ساهم في تحطيط وتطوير وتوسعة الحرم المكي والحرم المدني بمكة والمدينة للنورة ويعزو لنفسه الفضل في حديد خطوط القبلية الدائرية وإقتراح خط ليزر أخضر لتحديد القبلية - وإن تم رفضه ما أخبرني هذا الخبير بذلك إلا بعد أن رأى من قدرات بعض العرب على الإبداع على نحو لم يصادفه قبلاً إذ صادف قبلاً مسؤولين وصناعي قرار ولم يصادف كفاءات وعقول من يزخر بهم وطننا العربي الشاسع والمغمورين تحت عمى الإنبهار بالغرب هذا الإنبهار الذي دفع بملياردير عربي أن يبرغ أمواله تحت قدمي ثلاثة خبراء فقط يشكلون أحد المكاتب الإستشارية وقد قال لي أحد المعماريين الإنجليز من شركة أخرى تعمل مع شركة الخبراء الثلاثة بلندن لا أكاد أفهم لماذا يضع هذا الملياردير أمواله في مكتب هندسي تحت خدمة هؤلاء الثلاثة فقط وما هي حاجته لمكتب بهذا الصغر وهو يدير أعماله في مكاتب هندسية بريطانية أخرى???

أما أن لك يا أمة العرب أن تستفيقي من غفلتك فقد طالوت وطال أمدها ولعمر الحق لقد وجدت هذه الشركات الأوروبية للزعومة التي تبتر ملايين الملايين من الأموال العربية المشاع لكل الشعوب والأمم والتي هي حرام على بلبله حلال للطير من كل جنس كما قال أحمد شوقي رأيت بعض هذه الشركات لا تعدو كونها بضعة أفراد لا يحسن بعضهم استعمال البريد الإلكتروني بعد فيما بعضهم الآخر لا يعدو علمه المعماري ما شاع في السبعينيات من عمارة التكبسة ما بعد الحرب العالمية الثانية ولعمر الحق إن أحد (الخبراء) الأجانب الذين صادفتهم لم يكمل تعليمه المعماري وطرد خارج الكلية بعد السنة الثالثة وهذا الخبير النابغة يعمل كمدير للشركة ويقوم بزيارات مكوكية للخليج يقابل فيها العملاء والزبائن ليحصل لا على مباتي إنما أنصاف مدن وكيلومترات مربعة ولقد صادفته يوماً يتحدث لمدير آخر من (الخبراء) الوافدين إلينا وتلأى إلى مسامعي إشعارته لإحد زبائنه من الخليج العربي واصفاً إياه (بالبدن) هكذا ينظر أمثال هؤلاء للغباء العربي وهكذا يضحكون علينا في سرهم وفي علانيتهم.

أفيقي يا أمة العرب، وإلا فلتنعمي في سباتك ورفدتك المهينة إلى يوم الدين! ■

نمة أزمة محزنة ومخزية مرت ولا تزال تمر بها الأمة العربية من محيطها إلى خليجها. تتمثل في التبعية وما يمكن تعريفه بعقدة الغرب ومجر بالمرء خلال فترات من حباته العملية مجموعات من التجارب تتوالى تترى قد يلقي أو لا يلقي لها بالأل بيد أنني أقف بين فترة وأخرى على محطة من محطات الحياة المزدهجة ساهماً مفكراً مولياً ظهري للقطار لبرهة لأعيد ترتيب الأوراق ومراجعة الحسابات لإعادة التأكد من وجهة القطار رجاء المقاربة والتسديد ومن هنا يطيب لي -مع ما يعتدل في القلب من مرارة وحزن للمضمون- أن أقدم هذه الخواطر بين يدي هذه السطور عجلي ومعتثرة أمام أزمة خطيرة تحتاج لأكثر من مجرد خطرات فغاية ما ترونو إليه هذه السطور هو نقض خرافات وأوهام عششت وباضت وفرخت في عقول البعض-إن لم يكن الأغلبية- من العرب العاربة أو تلكم المستعربة فيما يخص العلاقة مع الغرب والتبعية التكدسة السمجة له.

جار المرء ويكاد يستعصي على الفهم ما يدور رحاه في كافة أرجاء الوطن العربي بعامة هذه الدويلات والجزر والدول تسمها ثورة عمرانية غير مسبوقه لا يلحقها -أو لا ينبغي لها- أي من مظاهر الحضارة والثقافة الأخرى بحال وتفاوت هذه الثورة العمرانية بيئن وجلي بين مختلف الأقطار العربية من المحيط إلى الخليج كل بحسب متغيرات محلية وإقليمية سواء أكانت ديموغرافية طبيعية أم اقتصادية أم سياسية بيد أنها في جليها بقسمها فاسم مشترك أعظم هو التبعية الغربية.

شاعت الأقدار أن استدعى ومنذ عامين ومن موقعي بلندن من قبل بعض الجهات العربية المننفذة والمسؤولة عن التنمية العمرانية في بعض وطننا العربي كي أعمال كمستشار على أكثر من مشروع من مشاريع التطوير التخطيطي والعمراني في الشرق الأوسط والخليج العربي ويحكم خبرتي العملية في مجال العمارة والتخطيط الحضري والتي تقارب العقدين من الزمان فقد أتاح هذا المنصب لي الفرصة للعمل والتنسيق مع أكثر من واحدة من الشركات الغربية التي تطل بنافاذة (خبراتها) على شرقنا الأوسطي أو خليجنا العربي والتي تم تكليفها -لأسباب مجهولة آخرها الكفاءة- لتخطط مشاريع في غاية الأهمية الحضارية والثقافية محلياً وإقليمياً وبدهيياً قد يفهم المرء ويكون من المنطقي والمقبول أن تطلب الأمة من غيرها من الأمم ما لا تملك هي فالمقايضة والتجارة وتبادل الصناعة أمر مقبول جداً وشائع عبر العصور فاستيراد السيارات في بلد غير صناعي أمر مفهوم وتظل السيارة على أية حال بعد الإستهراء بضاعة لا تدل على هوية محلية ولا متعلق حضاري أما الحال في العمارة والتخطيط فمختلف تماماً إذ هي لا ترتبط فقط بتعلقات الهوية والحضارة أثناء مرحلة خليقتها في رحم عملية التصميم المعقدة والمتشابكة مع العديد من الإختصاصات الثقافية والاجتماعية والإقتصادية والسياسية إنما تمتد لتشمل سلوكيات وترسيخ قيم وعادات وتقاليد وأبناط حياة بعد تنفيذ هذه المشاريع وقد يفهم المرء أيضاً أن تطلب العرب المستعربة تصاميم غربية تزيد في التعريب والإستهغراب الثقافي والحضاري وهنا قد يكون مفهوماً أن تنم الإستعانة بخبراء وشركات أوروبية لتصميم هذه العمائر الدخيلة. أما ما لم أفهمه فهو أن تطلب العرب من أوروبا وشركاتها تصاميم تنماشى مع التراث العربي الإسلامي وهذا ما صادفته ولعمرى إنني لأكاد أأحر في موجة السعار التي قد أصابت بعض العرب فطلبوا من الغرب ما لا يملكون فأتى لغربي أن يعيد تشكيل إحدائيات فكره ضمن ثقافة عربية لا يعي من أجدانها شيئاً فيعيت في شوارعها وطرقاتها وبنائها وأسس حضارتها ويعمل قلمه فيها مبنياً وشمالاً؟ وكيف يتأتى لأوروبي أن يصمم للعرب ما يعيد أمجاد حضارتهم البائدة في الأندلس وغرناطة؟ وهل عقمتم أرحام أمهات العرب أن تلد من المعماريين العرب من يخفق تلك المطالب؟ وأين بدران والوكيل وفتححي ومكية وأين وأين؟ ومن المفارقات البكية أن هذه المشاريع التنموية تنمو وتزدهر وترعرع في مناخ البؤس العربي فحين تلج بالأمة العربية مصيبة ونكبة سياسية تفرؤس الأموال من البلد